

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

حِينَ يُمْتَحَنُ صِدْقُ الْإِيمَانِ عِنْدَ أَبْوَابِ التَّضْحِيَةِ

تَأَلَّفُ : رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سورة محمد

حِينَ يَمْتَحِنُ صِدْقُ الْإِيمَانِ عِنْدَ أَبْوَابِ التَّضْحِيَةِ

تأليف: رَدَادُ السَّلَامِيِّ

يا صاحبي...
ثُمَّ سَوِّرُ فِي الْقُرْآنِ تَأْخُذَكَ إِلَى حَدِيقَةٍ، وَسَوِّرُ تَأْخُذَكَ إِلَى سَمَاءٍ، وَسَوِّرُ تَقِفُ بِكَ عَلَى شَاطِئِ
الْآخِرَةِ، أَمَا سُورَةُ مُحَمَّدٍ فَإِنَّهَا تَأْخُذَكَ إِلَى مِيدَانٍ.

مِيدَانٌ لَا تُخْتَبِرُ فِيهِ قُوَّةَ الْجَسَدِ وَحْدَهَا، بَلْ يُخْتَبَرُ فِيهِ صَدَقَ الْقَلْبُ.
هَنَا لَا يَعُودُ الْإِيمَانُ فِكْرَةً سَاكِنَةً فِي أَعْمَاقِ النَّفْسِ.
إِنَّهُ يَصْبِحُ مَوْقِفًا.

وَيَصْبِحُ انْتِمَاءً.

وَيَصْبِحُ ثَمَنًا.

وَيَصْبِحُ سَوْأًا حَادًّا:

إِذَا ازْدَحَمَ الطَّرِيقُ بِالْخُوفِ، وَالْمَصْلَحَةُ، وَالْدَمُ، وَالْهُوَى، فَأَيْنَ يَقِفُ قَلْبُكَ؟
هَذِهِ سُورَةٌ تَكْشِفُ أَنَّ أخطرَ المَعَارِكِ لَيْسَتْ دَائِمًا تِلْكَ الَّتِي تَدُورُ بَيْنَ جَيْشَيْنِ.
قَدْ تَكُونُ المَعْرَكَةُ الْأَشَدُّ فِي دَاخِلِ الْإِنْسَانِ:

بَيْنَ مَا عَرَفَهُ مِنَ الْحَقِّ، وَمَا تَشْتَهِيهِ نَفْسُهُ.

بَيْنَ مَا يعلَنُهُ لِسَانُهُ، وَمَا يَضْمُرُهُ قَلْبُهُ.

بَيْنَ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ، وَأَنْ يَسْتَخْدِمَ اسْمَ اللَّهِ لِيَعِيشَ لِنَفْسِهِ.

ولهذا ستجد السورة تتحرك بين المؤمنين والكافرين، وبين القتال والسلام، وبين الدنيا
والآخرة، وبين ظاهر الإنسان وباطنه، ثم تدخل فجأة إلى أكثر المناطق خفاءً في النفس:
القلب.

حتى تبلغ ذلك السؤال القرآني المزلزل:
﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

وَكأن السورة، بعد أن حدثتك عن ميادين الأرض، تريد أن تقول لك:
الميدان الحقيقي هنا.

في القلب.

فإن فُتِحَ، أبصر.

وإن أُقْفِلَ، فلن تنفعه كثرة الآيات حوله.

فلندخل السورة من أول أبوابها...

حين يُضِلُّ اللهُ العملَ لأنَّ الطريقَ نفسه ضلَّ

تبدأ السورة بضربة لا تمهد لنفسها طويلاً:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

تأمل هذه البداية.

لم تقل الآية أولاً: عاقبهم.

ولا: أهلكهم.

ولا: خسروا.

بل قالت:

﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

وكان العمل نفسه صار تائهاً.

سار...

لكنه لم يصل.

بذلت فيه الطاقة...

لكنها انتهت في الفراغ.

وربما كانت لهم مشروعات، ومساعي، وتدبير، وقوة، وحركة؛ ولكن القرآن يضع أمامنا

حقيقة مهيبة:

ليست قيمة العمل في ضخامته، بل في الجهة التي يسير إليها.

فقد يركض الإنسان كثيراً، ولا يقترب.

وقد يبني كثيراً، ولا يبقى له بناء.

وقد يصنع حول اسمه ضجيجاً هائلاً، ثم إذا جاء ميزان الآخرة لم يجد في يده شيئاً.

لأن السؤال الذي يسبق كل سؤال هو:

إلى أين كان يسير هذا العمل؟

إن العمل إذا انفصل عن الحق قد يكبر في أعين الناس، لكنه يضيع في ميزان السماء.

وتلك واحدة من أشد خسارات الإنسان:

أن يتعب...

ثم يكتشف أن تعبهُ كله كان يسير في الاتجاه الخطأ.

الإيمان ليس كلمةً وحدها... بل تصديقٌ بما نزل على محمد

ثم تفتح السورة الجهة الأخرى من المشهد:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

ما أرق هذا الانتقال.

في الآية الأولى:

﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

وفي الثانية:

﴿أَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

هناك ضياع.

وهنا إصلاح.

هناك حركةٌ بلا هداية.

وهنا قلبٌ يعاد ترتيب داخله.

وتأمل:

لم يقل سبحانه فقط:

﴿آمَنُوا﴾.

بل قال:

﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾.

إن الإيمان في التصور القرآني ليس شعوراً روحياً عائماً.

ليس أن تقول:

أنا مؤمن بالله...

ثم تنتقي من الوحي ما يلائم ذوقك، وتترك ما يزعجك.

الإيمان له مرجعية.

وله وحي.

وله رسول.

وله حق نازل من عند الله.

ولهذا جاء التعقيب الحاسم:

﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

لا لأنه وافق عصرًا.

ولا لأن الناس صفقوا له.

ولا لأن ثقافته ما اعترفت به.

إنه حق لأن مصدره:

﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

وهنا يستعيد المؤمن ميزانه.

فالحق لا ينتظر تصديق العالم حتى يصير حقًا.

العالم هو الذي يحتاج أن يستقيم على الحق.

﴿وَأَصْلَحَ بِاَلْحَمْدِ﴾... حين يدخل الإيمان إلى فوضى الداخل

قف هنا طويلاً.

﴿وَأَصْلَحَ بِاَلْحَمْدِ﴾.

يا لها من عبارة قصيرة تسع حياة كاملة.

البال هو ذلك العالم الخفي الذي تحمله معك ولا يراه أحد.

قلقلك.

اضطرابك.

مخاوفك.

تصوراتك.

ميزان الأشياء في قلبك.

طريقة فهمك للحياة.

ما الذي يستحق أن تحزن عليه؟

وما الذي يستحق أن تفرح به؟

ما الذي تخافه؟

ومَن ترجوه النجاة؟

من أنت؟

ولماذا تعيش؟

وإلى أين تمضي؟

كل هذا من البال.

وقد يملك الإنسان بيتاً مرتباً، وعملاً مرتباً، ومظهراً مرتباً...

وفي داخله مدينة من الفوضى.

لكن الله يقول عن المؤمنين:
﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

إن من أعظم عطايا الإيمان أنه لا يضيف إلى حياتك معلومة فحسب.
بل يعيد ترتيب الحياة كلها في داخلك.
يعيد الأشياء إلى أحجامها الحقيقية.
فلا تصير الدنيا أكبر من الآخرة.
ولا يصير الناس أكبر من الله في وعيك.
ولا يصير الفقر نهاية.
ولا يصير الموت عدماً.
ولا يصير الرزق بيد المخلوق.
ولا تصير الهزيمة العسكرية هزيمة للعقيدة.
ولا يصير انتصار الباطل المؤقت دليلاً على صوابه.
الإيمان يصلح البال لأنه يصلح الميزان الذي ترى به الأشياء.
وإذا صلح الميزان...
هدأت أشياء كثيرة كانت تفتلك.

هناك من يتبع الحق... وهناك من يتبع الباطل

ثم يكشف القرآن أصل المسألة:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

اتبعوا.

هذه هي الكلمة.

الحياة كلها اتباع.

لا أحد يعيش بلا قيلة.

ولا أحد يتحرك بلا مركز.

قد يقول الإنسان:

أنا حر.

لكن القرآن يسأله:

ماذا تتبع؟

فقد يتحرر المرء من عبودية صنم، ثم يقع في عبودية شهرة.

ويتحرر من إنسان، ثم يعبد رأي الجمهور.

ويرفض تقاليد الآباء، ثم يخضع بلا مقاومة لتقاليد عصره.

ويقول:

أنا أفكر بنفسي.

وهو في الحقيقة يكرر أكثر الأفكار شيوعاً حوله.

إن المسألة ليست:

هل تتبع أم لا؟

بل:

مَن تَتَّبِعْ؟

﴿اتَّبِعُوا الْبَاطِلَ﴾.

وفي المقابل:

﴿اتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

فالحق ليس مجرد فكرة تعرفها.

إنه طريق تمشي وراءه.

ولهذا قد يعرف الإنسان الحق ولا يكون من أهله.

لأن الفرق بين المعرفة والاتباع هو الفرق بين أن ترى الطريق...

وأن تسلكه.

القرآن يضرب الأمثال للناس عن أنفسهم

يقول سبحانه:

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾.

كأن القرآن لا يريد أن يحكي لك عن آخرين فحسب.

إنه يضع أمامك صورتك الممكنة.

كل نموذج كافر تقرأه في القرآن يحمل تحذيراً من شيء يمكن أن يتسلل إلى قلبك.

وكل نموذج مؤمن يحمل دعوة إلى مقام يمكنك أن ترتقي إليه.

القرآن لا يفتح لك متحفاً لتتفرج على التاريخ.

إنه يفتح مرآة.

ولهذا أخطأ من قرأ قصص الكافرين وهو منشغل بتحديد أسمائهم أكثر من انشغاله بالبحث

عن صفاتهم في نفسه.

وأخطأ من قرأ أوصاف المنافقين وقال:

هؤلاء قوم مضوا.

فالقرآن لم يُنزل لتكتشف به الآخرين فقط.

بل لتكتشف نفسك.

وقد تكون لحظة الهداية الكبرى حين يتوقف القارئ عن السؤال:

من المقصود بهذه الآية؟

ويبدأ يسأل:

ما نصيبي أنا من تحذيرها؟

حين يصير اللقاء مع الباطل امتحاناً لحقيقة الإيمان

ثم تنتقل السورة إلى مشهد شديد:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ...﴾.

هنا ندخل سياق المواجهة والقتال.

ولا ينبغي أن تُنتزع هذه الآيات من ميدانها وسياقها، فهي تحدث عن حال اللقاء الحربي والمواجهة المسلحة، لا عن علاقة المسلم بكل مخالف له.

لكن وراء الحكم يظهر معنى تربوي كبير.

فالإيمان الذي تحدثت عنه السورة قبل قليل ليس إيماناً نظرياً يعيش في المساحات الآمنة فقط.

سيأتي وقت يُطلب فيه من المؤمن أن يتحمل تكلفة ما يؤمن به.

وهنا تمتاز القلوب.

فما أكثر المبادئ الجميلة حين لا يكون لها ثمن.

وما أكثر الشجاعة حين لا يوجد خطر.

وما أسهل الحديث عن التضحية حين يضحى الآخرون.

لكن اللحظة التي تكشف حقيقة الإنسان هي:

حين تصبح للكلمة فاتورة.

ولموقف خسارة.

وللحق تعب.

عندها نعرف:

هل كان الحق محبوباً لذاته...

أم محبوباً ما دام مريحاً؟

﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾... فلماذا يكلف المؤمنين؟
ثم تأتي الآية بما يهدم وهماً عميقاً:
﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُو بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾.
تأمل.

الله قادر أن ينتصر من أعدائه دونك.

لا يحتاج إلى سيفك.

ولا إلى قوتك.

ولا إلى مالك.

ولا إلى صوتك.

ولا إلى تعبك.

إذن...

لماذا يكلفك؟

﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُو بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾.

هنا تنقلب زاوية الرؤية كلها.

أنت لم تدخل المعركة لأن الله محتاج إليك.

بل لأنك أنت المحتاج إلى الامتحان.

إن التكليف لا يكشف قدرة الله.

فقدرفته كاملة قبل وجودنا.

إنه يكشف حقيقتنا نحن.

من الصادق؟

من المتردد؟

من الذي يبيع؟

من الذي يثبت؟

من الذي كان يحب الدين حين كان الدين يمنحه مكانة، ثم إذا طالبه الدين بتمن النسيب؟

إن الله يستطيع أن ينصر الحق بغيرنا.

لكننا نحن لا نستطيع أن نبلغ مقامات الصادقين بلا ابتلاء.

فالمحنة لا تضيف إلى علم الله شيئاً.

ولكنها تُخرج ما في القلب إلى عالم الواقع.

كان الإيمان دعوى.

فصار موقفاً.

وكان اليقين معنى.

فصار ثباتاً.

وكان الحب كلمة.

فصار تضحية.

الذين قُتلوا في سبيل الله... لم تَضَعْ أعمالهم

ثم يقول سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾.

ما أدهش المقابلة مع أول السورة.

هناك:

﴿أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾.

وهنا:

﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾.

قد ينظر أهل الأرض إلى رجل قُتل فيقولون:

انتهى.

ضاع عمره.

ضاع مستقبله.

ذهب تعبهِ.

أما السماء فتعلن:

لم يضع شيء.

ربما سقط الجسد...

لكن العمل لم يسقط.

ربما خرج من الدنيا...

لكن أثره دخل سجلاً لا يحترق.

وهذه من أعظم الفروق بين ميزان الأرض وميزان الآخرة.

الأرض تحسب بما بقي في اليد.

والسماء تحسب بما قُدِّمَ لله.

الأرض تقول:

ماذا كسب؟

والسماء تسأل:

لمن بذل؟

ولهذا قد يكون من يبدو خاسراً في ميزان اللحظة هو الراجح الأكبر في ميزان الأبد.

﴿سَيِّدِيهِمْ وَيُصْلِحْ بَالَهُمْ﴾... هداية بعد الموت؟

ثم تأتي الآية العجيبة:

﴿سَيِّدِيهِمْ وَيُصْلِحْ بَالَهُمْ﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ.

تأمل الترتيب.

قدموا أرواحهم لله...

فلم تكن النهاية غياباً.

بل بدأت مرحلة أخرى من الهداية والتكريم والإصلاح.

﴿سَيِّدِيهِمْ﴾.

كأن الهداية ليست طريقاً في الدنيا ينتهي عند الموت.

بل تمتد هداية الله وعنايته بالعبد حتى يبلغه منزله.

ثم مرة أخرى:

﴿وَيُصْلِحْ بَالَهُمْ﴾.

لقد ذكرت في أول السورة للمؤمنين الأحياء.

ثم عادت هنا في سياق الذين قُتلوا في سبيل الله.

وكان صلاح البال نعمة تسير مع المؤمن في الطريق كله.

في الدنيا...

يصلح الله باله باليقين.

وعند اللقاء...

يصلح باله بالأمان.

وفي الآخرة...

يدخله داراً لا خوف فيها ولا حزن.

ثم هذه العبارة الساحرة:

﴿وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾.

كأن الجنة ليست غريبة عنهم.

وكان بينهم وبينها معرفة سابقة.

طالما ذكرت لهم.

طالما اشتاقوا إليها.

طالما صلى أحدهم وهو ينتظرها.

وطالما ترك شهوة لأجلها.

وصبر على وجع وهو يرجوها.

وغض بصره من أجلها.

وأنفق ماله لها.

وسهر يناجي الله طلباً لها.

فإذا دخلها...

لم يدخل مكاناً لا يعرفه.

إنه يصل أخيراً إلى البيت الذي ظل قلبه يتجه إليه طوال الطريق.

﴿عَرَفَهَا هُمْ﴾.

يا لها من خاتمة لأول مشاهد السورة:

أناس ضاعت أعمالهم لأنهم اتبعوا الباطل.

وأناس أصلح الله بالهم لأنهم اتبعوا الحق.

وأناس بذلوا حتى أرواحهم، فما ضاع منهم شيء.

ثم انتهى الطريق عند باب يعرفونه.

الجنة.

وهكذا تضع سورة محمد منذ مطلعها ميزاناً لا يترك للقلب منطقة رمادية:

ليس السؤال كم عملت.

بل: لمن كان العمل؟

وليس السؤال ماذا تقول عن الحق.

بل: هل تتبعه؟

وليس السؤال هل تحب الإيمان في أوقات الرخاء.

بل:

ماذا يبقى من إيمانك حين يصبح للحق ثمن؟

﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾... حين يبدأ النصر من الداخل

يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

يا صاحبي...

قف أمام هذا الشرط طويلاً:

﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ﴾.

والله سبحانه غني عن العالمين.

لا يحتاج إلى ناصر.

ولا تقوم قوته بأحد.

ولا يزداد ملكه بطاعة مطيع، ولا ينقص بمعصية عاصٍ.

فما معنى أن تنصر الله؟

أن تنصر دينه.

أن تنصر وحيه في أنفسنا قبل أن ننصره بألسنتنا.

أن يقف الحق في حياتنا حيث أراد الله له أن يقف.

أن نقول للهوى: لا، حين يقول الوحي: لا.

أن نحفظ حدود الله حين تتكاثر المغريات التي تدعونا إلى تجاوزها.

أن تنصر الحق حين لا يكون الحق مشهوراً.

وحين لا يكون مربحاً.

وحين لا يقف إلى جانبه جمهور.

إن نصرة الله ليست هتافاً.

إنها انخياز وجودي.

أن يصبح لله في قلبك الكلمة العليا.

وهنا يأتي الوعد:

﴿يَنْصُرُكُمْ﴾.

لكن تأمل ما بعد النصر:

﴿وَيُثِّبُ أَقْدَامَكُمْ﴾.

فالانتصار ليس دائماً أن يزول العدو فوراً.

أحياناً أول النصر أن لا تزول أنت من مكانك.

أن تهب الرياح...

فتثبت.

أن تتكاثر الشبهات...

فلا يتبدل يقينك.

أن يطول الطريق...

فلا تبيع وجهتك.

أن يشتد الخوف...

ولا يرجع قلبك عن ربه.

إن تثبتت القدم نصر.

وثبات القلب نصر.

والبقاء على الحق حين يكثر المتراجعون...

نصر قد لا يسمع له العالم ضجيجاً، لكن السماء تعرف وزنه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ﴾ ... حين تنطفئ بركة الطريق

ثم يأتي الوجه الآخر:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

مرة أخرى تعود العبارة:

﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

كأن السورة تريد أن تثبت في قلبك هذه الحقيقة:

ليس كل نجاح نجاحاً.

قد ينجح المشروع...

وفشل صاحبه.

قد تعلقو البناية...

ويهبط الإنسان.

قد ينتشر الاسم...

وتضيع الروح.

قد ينتصر المرء في معركة صغيرة من معارك الدنيا، ثم يكون قد خسر المعركة الكبرى التي

خُلق من أجلها.

﴿فَتَعَسَا لَهُمْ﴾.

إنها كلمة تحمل معنى السقوط والخيبة والانكباب.

وكان من يعرض عن الحق، مهما بدا واقفاً في أعين الناس، يحمل في داخله بذرة سقوطه.

فالإنسان لا يقوم بما يملك.

إنما يقوم بما يتصل به.

فإذا انفصل عن مصدر الهداية، قد تمشي قدماه زمناً، لكن الوجهة نفسها قد ضاعت.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزَلَ اللَّهُ﴾... الجريمة التي تبدأ من الفور

ثم يكشف القرآن علة عميقة:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

تأمل:

لم يقل فقط إنهم لم يعملوا بالوحي.

بل قال:

﴿كَرِهُوا مَا أُنْزَلَ اللَّهُ﴾.

وهنا يدخل القرآن إلى طبقة أخفى من السلوك.

إلى موقف القلب من الوحي.

قد يمتنع الإنسان عن الطاعة ضعفاً، وهو يحب أمر الله ويكره تقصيره.

وهذا قلب يرجى له.

وقد يقع في الذنب، ثم يحزن لأن الله لا يحب ما فعل.

وهذا الجرح نفسه دليل حياة.

لكن الخطر الحقيقي أن تتقلب الموازين في الداخل...

فيصبح ما أحبه الله ثقيلاً على القلب.

وما أبغضه الله محبوباً إليه.

ثم لا يكتفي الإنسان بالضعف عن الحق، بل يبدأ يستثقل الحق لأنه حق.

هنا تبدأ الكارثة.

لأن العلاقة بالوحي لم تعد علاقة تقصير...

بل صارت علاقة نفور.

﴿كَرِهُوا مَا أُنْزَلَ اللَّهُ﴾.

وما أوجع أن يعيش الإنسان في عالم خلقه الله، ويأكل من رزق الله، ويتنفس بهواء الله، ثم يجد في نفسه ضيقاً من كلمة الله.

وهنا تأتي النتيجة:

﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

لأن القلب الذي يعادي مصدر الحق لا تنقذه كثرة الحركة.

المشكلة لم تعد في عمل هنا أو هناك.

المشكلة في المركز الذي يصدر عنه العمل كله.

سافروا في الأرض... لكن لا تمروا على الخرائب كالسائحين

يقول سبحانه:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾.

القرآن يحب أن يوقظ في الإنسان عيناً أخرى.

ليست العين التي ترى الحجر فقط...

بل العين التي ترى المصير المحتئي داخل الحجر.

تمر على مدينة سقطت.

قصر تهدم.

حضارة انطفأت.

عرش صار أثراً.

فتستطيع أن تقول:

ما أجمل الآثار.

لكن القرآن يريد منك سؤالاً أبعد:

كيف انتهى هؤلاء؟

لأن التاريخ في القرآن ليس معرضاً للفرجة.

إنه محكمة مفتوحة.

آثار المتكبرين ليست حجارة صامته.

إنها كلمات طويلة قالها الزمن بعد أن سكّت أصحابها.

كان لهم صوت.

وكانت لهم جيوش.

وكانوا يملكون القرار.
وربما ظن أحدهم أن الأرض لن تخرج من قبضته.
ثم مرّت القرون...
وبقيت حجرة مكسورة تقول لكل طاغية جديد:
كنتُ يوماً قصراً.
وهنا يحرر القرآن قلب المؤمن من سطوة المشهد الراهن.
فلا يخدعه ارتفاع الباطل.
لأنه رأى من قبل كيف تهبط الأشياء التي توهم الناس أنها لن تهبط أبداً.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾... أعظم ما يملكه المؤمن
ثم تأتي آية لو استقرت في القلب لكفته عند مخاوف كثيرة:
﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾.
الله...

مولى الذين آمنوا.

ليست المسألة أن المؤمن يملك دائماً أكثر.

ولا أنه يكون أقوى في كل لحظة.

ولا أنه لا يبحر.

ولا يخسر.

ولا يبكي.

ولكن وراء ضعفه قوة لا تنقطع.

ووراء فقره غنى لا ينفد.

ووراء غربته ولاية لا يبدها غياب البشر.

﴿اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

فماذا خسر من كان الله مولاه؟

وماذا ربح من حاز الدنيا كلها ثم:

﴿لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾؟

إن أحد أكثر أوهام الدنيا قسوة أن تقيس القوة بما تراه فقط.

بمال.

أو عدد.

أو نفوذ.

أو سلاح.

لكن القرآن يكشف الطبقة الخفية من القوة:

من وراءك؟

فقد يقف المؤمن وحده في أعين الناس...

وليس وحده.

وقد تقف خلف الآخر إمبراطوريات...

وهو في الحقيقة بلا مولى.

وهذه الآية لا تصنع في المؤمن غروراً.

بل تصنع فيه سكينه.

فهو لا يقول: أنا قوي.

بل يقول:

ربي مولاي.

والفرق بين الجملتين هو الفرق بين الكبر والتوكل.

جنة القلب قبل جنة الآخرة

ثم يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

بعد مشاهد الصدام والابتلاء والسقوط...

تفتح السورة نافذة على الماء.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

كأن الرحلة المتعبة كلها تنتهي في السكينة.

إن القرآن حين يذكر الجنة في طريق التكليف لا يقدمها زينة لغوية.

إنه يعيد ترتيب إحساسك بالتكلفة.

الصبر ثقيل إذا ظننت أن الطريق ينتهي عند الألم.

أما إذا رأيت خلف الألم باباً...

وخلف الباب جنة...

وخلف الجنة رضواناً من الله...

تغير معنى الطريق كله.

ولذلك لا يستطيع الإنسان أن يصبر طويلاً إذا صغرت الآخرة في قلبه.

إن مقدار احتمالك لمشاق الإيمان مرتبط بمقدار وضوح النهاية أمامك.

كلما غابت الجنة...

بدت التضحيات أكبر.

وكلما حضرت...

صغرت الدنيا كلها.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَمْتَحُونُ﴾... ليست كل لذة حياة

وليستمر السياق:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَمْتَحُونُ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾.

القرآن لا يذم الطعام.

ولا المتاع في ذاته.

فالله هو الذي خلق الطيبات.

لكن الكلمة المفزعة هنا:

﴿كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾.

ما الفرق؟

الإنسان لا يصبح إنساناً بمجرد أن يأكل ويشرب ويسكن ويشتهي.

فالأنعام تفعل ذلك أيضاً.

إن الذي يجعل الإنسان إنساناً هو المعنى.

أن يعرف من خلق الطعام.

ولماذا خلق الحياة.

وإلى أين ينتهي الطريق.

أن تتحول اللقمة إلى شكر.

والمال إلى مسؤولية.

والقوة إلى أمانة.

والعمر إلى رسالة.

أما إذا انحصرت الحياة كلها في الاستهلاك...

فقد تمتد سنوات الإنسان، لكن معناه ينكمش.

يأكل ليعيش.

ويعيش ليأكل.

يجمع ليتمتع.

ويتمتع ليجمع.

ثم يمضي.

دائرة مغلقة لا سماء فيها.

والقرآن يهدم هنا واحدة من أكبر خدع الحضارة المادية:

أن ارتفاع مستوى المتعة يعني بالضرورة ارتفاع مستوى الإنسان.

ليس صحيحاً.

قد تتطور وسائل اللذة...

وتراجع معنى الحياة.

وقد تتكاثر الأشياء التي يمتلكها الإنسان...

ويفقد الإنسان نفسه.

كم من مدينة كانت أشد قوة... ثم لم تجد ناصراً

يقول سبحانه لنبيه ﷺ:

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ أَهْلَكَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

هنا تقترب الآية من جرح شديد الخصوصية.

﴿قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ﴾.

مكة.

البلد الذي عرف خطواته ﷺ.

طفولته.

شبابه.

بيته.

ذكرياته.

ثم صار المكان نفسه يضيق برسالته حتى أخرجه.

ما أثقل أن يُخرج الإنسان من المكان الذي يحبه.

لكن القرآن لا يترك الجرح وحده.

يضع أمامه تاريخاً كاملاً:

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ﴾.

أي:

لا تجعل قوة من أخرجوك تخدع قلبك.

كان قبلهم من هو أشد.

ومضوا.

إن الله يعالج الخوف أحياناً بأن يوسع نافذة الزمن.

فالإنسان إذا حُبِسَ داخل اللحظة ظن أن خصمه أبدي.
لكن إذا نظر في القرون...
رأى الطغاة طواير من الغائبين.
كل واحد منهم كان في زمانه يبدو استثناءً.
ثم صار خبراً.
ولذلك فاليقين لا يعني إنكار قوة الخصم.
بل يعني ألا تجعل قوته آخر حقيقة في المشهد.
فوراءها الله.
وفوقها القدر.
وبعدها الزمن.
وفي النهاية...
﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

هل يستوي من يمشي على بينة ومن زين له سوء عمله؟

ثم تصل السورة إلى سؤال يقسم الناس من الداخل:

﴿أَفَنَ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.

هنا ليس الفرق بين رجل يعلم ورجل لا يعلم فقط.

الفرق بين إنسان يعيش:

على بينة من ربه.

وإنسان يعيش داخل عمل سيء...

لكن المأساة أنه يراه جميلاً.

وهنا تبلغ الضلالة مرحلة أشد خطراً من مجرد المعصية.

فالإنسان الذي يعرف أن خطأه خطأ ما يزال يحمل في داخله نافذة للرجوع.

أما الذي زين له سوء عمله...

فقد تعطلت البوصلة نفسها.

لم يعد يحتاج فقط أن يغير سلوكه.

بل يحتاج قبل ذلك أن يستعيد قدرته على رؤية السلوك كما هو.

ولهذا كانت من أخطر دعوات القلب:

يا رب...

لا تجعلني أرى قبيحي جميلاً.

فالإنسان قد يظلم ويسمي ظلمه حزماً.

وقد يحسد ويسمي حسده غيرة على الحق.

وقد ينتقم لنفسه ويسمي انتقامه دفاعاً عن الدين.

وقد يحب الظهور ويسميه خدمةً للدعوة.

وقد يتبع هواه ثم يصنع له بعد ذلك بناءً كاملاً من الحجج.

وهنا تكشف الآية شيئين متصلين:

﴿زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾.

ثم:

﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.

فالهوى لا يكتفي بأن يأمر.

بل يحاول أن يجعل الأمر في عينيك.

حتى لا تشعر أنك تتبع هواك أصلاً.

وهذا هو الخطر.

الجنة التي تبدأ صورتها من الماء الذي لا يأسن

ثم تفتح السورة مشهداً من أوسع مشاهدتها:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ نَحْمٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

أنهار...

ماء.

ولبن.

وشراب لذة.

وعسل.

وثمرات.

لكن وسط هذه النعم الحسية كلها تأتي نعمة مختلفة:

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

كأن الجنة لا تكتمل بمجرد أن يجد الجسد ما يشتهي.

فالقلب أيضاً يحتاج شيئاً أعظم:

أن يدخل الجنة وقد سقط عنه حمل الذنب.

أن يعلم أن الماضي الذي كان يؤلمه قد غفر.

أن الذنوب التي كان يتذكرها فيبكي...

لم تعد وراءه تطارده.

أن الله رضي عنه.

تلك نعمة لا تجري في نهر.

لكنها ربما كانت ألد من كل الأنهار.
المغفرة.

فكم من إنسان يستطيع أن يملك متاعاً، لكنه لا يستطيع أن يهرب من ذاكرته.
وكم من إنسان تتوفر حوله النعم، وفي صدره وخز خطيئة قديمة.
أما في الجنة...

فلا ماء يأسن.

ولا لبن يتغير.

ولا نعمة تنقطع.

ولا ذنب يفتح جرحه من جديد.

حتى الذاكرة تدخل الجنة بعد أن يطهرها الله من ألمها.

النهاية هي التي تكشف القيمة الحقيقية للطريق

ثم تقيم الآية المقارنة المفزعة:

﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾.

القرآن لا يسمح لك أن تحكم على الطريق من أوله.

لا تنتظر فقط إلى ما يتمتع به الناس الآن.

انظر إلى أين ينتهي المسار.

قد يبدأ طريق بخسارة وينتهي بجنة.

وقد يبدأ طريق بلذة وينتهي بنار.

ومن هنا تتغير فلسفة الحياة كلها.

العاقل لا يسأل عن اللحظة وحدها:

هل هذا ممتع؟

هل هذا مؤلم؟

هل هذا مربح؟

بل يسأل سؤالاً أعمق:

إلى أين يأخذني؟

فليست المشكلة في أول خطوة.

المشكلة في المكان الذي ستقود إليه الخطوات إذا استمرت.

وهكذا، بعد أن عرضت السورة أمامنا طريقين، تنقلنا شيئاً فشيئاً من ظاهر المواجهة إلى باطن الإنسان.

من السيوف...

إلى النيات.

ومن القوة...

إلى الولاية.

ومن المدن المنهارة...

إلى البصيرة.

ومن اللذة العابرة...

إلى المصير.

وكانها تهيئنا الآن لدخول منطقة أشد خفاءً وخطورة:

منطقة الذين يسمعون كلام النبي ﷺ، لكن قلوبهم لا تسمع.

هناك ستبدأ السورة في كشف مرض آخر.

ليس كفراً معلناً دائماً.

بل قلب قريب من الصوت...

بعيد عن المعنى.

ومن هناك سنصل إلى إحدى أعظم آيات التدبر في القرآن:

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ ... حين تصل الكلمات إلى الأذن ولا تبلغ القلب يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا﴾ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ. .

يا صاحبي... ما أقرب المسافة بين الأذن والقلب في الجسد، وما أبعدا أحياناً في عالم المعنى. هؤلاء جلسوا قريبين من رسول الله ﷺ، وسمعوا الصوت الذي تلقى الوحي من السماء، ثم خرجوا يسألون: ﴿مَاذَا قَالَ آنفًا﴾؟ لم تكن المشكلة في انخفاض الصوت، ولا في غموض العبارة، ولا في نقص البيان؛ إنما كانت في موضع أعمق: القلب لم يكن مستعداً أن يستقبل.

وهذه صورة مخيفة لعلاقة الإنسان بالقرآن؛ فقد يمر الكلام على أذنه كما يمر المطر على حجر أملس، يبلله لحظة ثم يتحدر عنه فلا يثبت فيه شيء. وقد يقرأ المرء الآية عشرات المرات، ويحفظ تفسيرها، ويعرف سبب نزولها، ثم يبقى بينه وبين مرادها حجاب خفي لأن القضية ليست دائماً نقص معلومة، بل قد تكون ممانعة داخلية لا تريد للآية أن تصل إلى المكان الذي ستغيره.

والسورة تكشف الجذر سريعاً: ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾. فالهوى لا يمنع الإنسان من السماع فقط، بل قد يسمح له أن يسمع ثم ينتقي مما سمع ما لا يزججه. وحين يصبح الهوى هو المفسر الخفي للوحي، لا يعود الإنسان يسأل: ماذا يريد الله مني؟ بل يسأل دون أن يشعر: ماذا أستطيع أن آخذ من كلام الله بحيث أبقى كما أنا؟

وهنا يظهر الفرق بين أذن تسمع، وقلب يصغي. الأذن تلتقط الحروف، أما القلب فيسمح للحروف أن تحاكمه. وأصعب أنواع السماع هو ذلك الذي لا يتركك كما كنت.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾... الهداية باب يفتح على أبواب
ثم يقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾.

ما أجمل هذه الحركة الصاعدة: اهتدوا... فزادهم هدى. لم يكن الانتهاء نهاية الطريق، بل
بدايته. كأن الله يقول لك إن النور إذا صدقت معه أنجب نوراً آخر، وإن الطاعة إذا
استقبلتها بقلب مفتوح فتحت لك من الفهم ما لم يكن يُفتح قلبها.

هناك من ينتظر أن يكتمل يقينه حتى يطيع، بينما يكشف القرآن أن بعض اليقين يولد بعد
الطاعة. تمشي خطوة بما تعرف، فيضيء الله أمامك الخطوة التالية. تعمل بالحق الذي ظهر
لك، فيكشف لك من الحق ما لم يكن ظاهراً. تهتدي إلى باب، فإذا دخلته رأيت ممرات لم
تكن تراها من خارجه.

وهذه قاعدة تربوية عظيمة: الهداية ليست كلمة واحدة تُعطى للإنسان مرة واحدة، بل هي
رزق متجدد. ولهذا قد يقرأ شخصان الآية نفسها، فيخرج أحدهما منها بمعنى يغير حياته،
ويخرج الآخر بمعلومة عابرة. ليس السر في الحروف؛ الحروف واحدة، ولكن القلوب
ليست في المنزلة نفسها من الاستعداد.

ثم قال: ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾. وكأن من صدق مع الله في الطريق، لم يتركه الله يعتمد على
قوته وحدها، بل أعانه على أن يكون القلب أكثر يقظة وحذراً من مواقع السقوط. فأنت
لا تسير إلى الله بما تملك فقط؛ بل بما يمدك الله به في أثناء السير.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾... النهاية التي قد تأتي دون موعد في دفترك
يقول تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا
جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾.

الإنسان بارع في التأجيل. سيعود. سيتغير. سيتوب. سيصلح ما أفسده. سيفتح المصحف
حين يهدأ. سيعتذر حين تسنح الفرصة. سيصير إنساناً آخر في موسم قادم. وكل هذه
الوعود مبنية على اقتراض خفي لا يملك عليه دليلاً: أن الوقت سيمنحه فرصة أخرى.
ثم تأتي كلمة واحدة فتهدم هذا الوهم: ﴿بَغْتَةً﴾.

الساعة لا تستأذن مشاريعك، ولا تنتظر انتهاء خططك، ولا تسأل كم بقي في قائمة أعمالك.
ولأن الإنسان قد ينسى هذه الحقيقة، يأتي القرآن لا ليزرع فيه فزعاً عقيماً، بل ليعيد
للحاضر قيمته. ما دام الباب مفتوحاً الآن، فلماذا تعيش وكأنك تملك مفاتيح الغد؟

ثم يقول: ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾. أي ما قيمة التذكر حين ينتهي زمن العمل؟
هناك معرفة تأتي في وقت تنفع فيه، ومعرفة تأتي متأخرة فتتحول إلى حسرة. والحكمة
ليست أن تعرف الحقيقة في النهاية فقط، بل أن تعرفها قبل أن يصبح التصديق بها عديم
القدرة على تغيير المصير.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾... كل الطريق يعود إلى هذه الحقيقة

بعد الحديث عن الساعة، تأتي الآية كأنها تجمع الطريق كله في أصل واحد: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾.

تأمل: ﴿فَاعْلَمْ﴾. التوحيد ليس شعاراً يمر على اللسان، بل حقيقة ينبغي أن تستقر في الوعي حتى تعيد تفسير الوجود كله. لا إله إلا الله تعني ألا يكون في القلب محبوب يُطاع في معصية الله، ولا خوف يطفى على خوفه، ولا رجاء ينازع الرجاء فيه، ولا ميزان يعلو على ميزانه.

ثم بعد العلم يأتي الاستغفار. وهذا من جمال العبودية؛ فكلما ازداد الإنسان علماً بربه، ازداد إدراكاً لتقصيره. الجهل قد يصنع غروراً، أما المعرفة الحقيقية فتفتح في النفس باب التواضع. ولهذا لم يقل: فإذا علمت أنك وصلت، بل قال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ﴾. فعرفة الله لا تجعل المؤمن معجباً بنفسه، بل تجعله أبصر بثغراتها.

ثم يمتد القلب من نفسه إلى غيره: ﴿وَالِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾. كأن الإيمان حين ينضج لا يبقى مشروع نجاة فردية. إنك تحمل غيرك في دعائك، وتعرف أن الطريق إلى الله لا يعاش بأنانية روحية.

وفي ختام الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾. يعرف حركتك وسكونك، خروجك وعودتك، وما تثقل به من أحوال. لا توجد منك منطقة مجهولة عنده. وما أريج هذا للبخلص، وما أثقله على المتصنع.

حين يطلب الإنسان التكليف... ثم يفزع حين يأتي
يقول سبحانه: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا
الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ما أسهل الحماسة قبل التكليف. يسأل الإنسان: ماذا نفعل؟ أين الأمر؟ أين الموقف؟ فإذا
جاء الأمر الذي يكلف شيئاً من الراحة والمال والنفس، تغيرت الوجوه.

وهنا تكشف السورة واحداً من أخطر الفروق بين الإيمان المتخيّل والإيمان الممتحن. في
الخيال نحن شجعان جداً؛ نتصور أنفسنا ثابتين عند الفتن، صابرين في المحن، باذلين حين يدعو
البذل. لكن الحقيقة لا تظهر في الصور التي نصنعها لأنفسنا، بل في اللحظة التي يأتي فيها
التكليف ويقول لك: الآن.

ولهذا كانت التكاليف مرايا. لا تخبر الله بما فينا، فهو يعلمنا قبل أن نخلق، لكنها تخبرنا نحن
بأنفسنا. كثير من الناس لا يكشف هشاشته إلا حين يوضع أمام الثمن الذي كان يتحدث
عنه طويلاً.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾... الدين لا يحتاج كل هذا الالتواء
ثم يقول الله تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.
كم تختصر هذه الآية طريقاً طويلاً من الجدل النفسي: طاعة، وقول معروف، وصدق مع
الله.

ليس أصعب ما في التكليف معرفة ما يريد الله دائماً؛ أحياناً يكون الأمر واضحاً، لكن
النفوس تبدأ في صناعة الممرات الجانبية. تبرر، وتؤجل، وتبحث عن صيغة تحفظ لها صورتها
وتحفظ لها هواها في الوقت نفسه.

ثم يقول: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

صدقوا الله.

هذه العبارة وحدها تستطيع أن تكون ميزان حياة كاملة. ليست القضية أن تنجح في إقناع
الآخرين ببقاء نيتك، بل أن يكون ما بينك وبين الله صحيحاً. قد تخدع الناس ببلاغة، وقد
تخدع نفسك بكثرة التعليقات، لكنك لا تستطيع أن تصنع حقيقة مزيفة أمام من يعلم
السر وأخفى.

وكلما اشتبه عليك أمر قلبك، اسأل: لو سقطت كل العيون عني، وبقي علم الله وحده، هل
سأختار الفعل نفسه؟ هناك يبدأ امتحان الصدق.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ... حين يكشف الإعراض عن الوحي وجهه الاجتماعي
ثم يأتي التحذير: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۖ
أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾.

ما العلاقة بين التولي وبين الإفساد وقطع الأرحام؟

لأن الوحي لا يصلح علاقتك بالله وحدها؛ إنه يصلح شبكة العلاقات كلها. فإذا خرج
الإنسان من ميزان الله، لم يبق الهوى محبوباً في داخل النفس، بل تسرب إلى البيت
والمجتمع والمال والخصومة والسلطة. يتحول مرض القلب إلى فساد على الأرض.

ومن أعجب ما في الآية أنها تضع قطع الأرحام إلى جانب الإفساد في الأرض، وكأن
تمزيق الروابط التي أمر الله بوصلها صورة من صور الخراب الكبير. قد يتخيل الإنسان أن
الفساد لا يكون إلا في عروش الطغاة والأسواق والمؤسسات، لكن ثمة فساد يبدأ من
بيت صغير؛ من أخ لا يكلم أخاه، ومن رحم قطعت لأجل مال أو كبر أو خصومة
قديمة.

ثم تأتي العقوبة المناسبة: ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾. يملكون آذاناً، ولكنها لا تهدي
بالصوت. وملكوا أعيناً، ولكنها لا تصل إلى الحقيقة. وأشد العمى أن تبقى العين مفتوحة
ويغيب عنها طريق النجاة.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾... أم أن المشكلة ليست في النص بل في الأقفال؟
وهنا تبلغ السورة إحدى قممها: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

يا صاحبي... لا تمر بهذه الآية سريعاً.

لم يقل القرآن: أفلا يقرأون؟ لأنهم ربما كانوا يسمعون ويقرؤون. ولم يقل: أفلا يعرفون
الفاظه؟ إنما قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾.

والتدبر أن تتبع المعنى حتى منتهاه، وأن تسمح للآية أن تنزل من اللسان إلى العقل، ومن
العقل إلى القلب، ومن القلب إلى القرار. أن تقف أمامها لا كفاقد خارج النص، بل
كإنسان يقف أمام خطاب ربه.

ثم تأتي الصورة العجيبة: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

ليست المشكلة دائماً أن النور قليل. قد يكون النور ساطعاً، لكن النافذة مغلقة. وليس كل
من لم ينتفع بالقرآن يحتاج إلى مزيد من الأدلة؛ ربما يحتاج أولاً إلى أن يسأل: ما القفل
الذي وضعته أنا على قلبي؟

قفل الكبر؟ قفل الشهوة؟ قفل العادة؟ قفل التعصب؟ قفل الخوف من أن تلزمك الحقيقة
بما لا تريد؟ قفل صورة صنعتها عن نفسك ولا تريد للقرآن أن يهدمها؟

وتأمل جمع الأقفال. كأن القلب قد لا يغلق بباب واحد. قد تراكم عليه أقفال حتى يصبح
النص قريباً جداً، والهداية بعيدة جداً.

ولهذا فإن أعظم دعاء للقارئ قبل أن يفتح المصحف ليس أن يرزقه الله عيناً تقرأ فقط،
بل قلباً غير مقفل.

الرجوع إلى الوراء لا يبدأ من القدم... بل من مساومة خفية في القلب
يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ
وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾.

ما أخطر قوله: ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾. فليس كل ضلال سببه غياب المعرفة. قد
يتبين الطريق ثم يختار الإنسان غيره.

وهنا يظهر عمل الشيطان: ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾. لا يأتيك الشر دائماً بوجهه القبيح. لو جاءك هكذا
لفررت منه. لكنه يعيد طلاءه، يمنحه اسماً آخر، ويضع حوله منطقاً يجعل الانحدار يبدو
كأنه تصرف حكيم.

ثم: ﴿وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾. يفتح أمام النفس مسافة من الأمل الكاذب: لا بأس، ما زال الوقت
طويلاً، يمكنك أن تعود لاحقاً، هذه خطوة صغيرة، وهذه تنازلات مؤقتة. وهكذا لا يقع
السقوط دائماً دفعة واحدة؛ قد يبدأ بتأجيل صغير يتكاثر حتى يجد الإنسان نفسه بعيداً عن
الموضع الذي كان يعرف فيه الحق بوضوح.

﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾... التنازل الذي يبدأ بكلمة «بعض»
قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
إِسْرَارَهُمْ﴾.

تأمل دقة العبارة: ﴿فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾.

لا أحد يبدأ عادة بقوله: سأترك الحق كله. بل تبدأ الانحرافات الكبرى بتنازل يبدو
صغيراً، مؤقتاً، محسوباً. «في بعض الأمر». ثم يتسع البعض، ويألف القلب التراجع،
وتصبح الخطوة التي كانت مستحيلة بالأمس قابلة للتفاوض اليوم.

والله يقول: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾. يعرف مواضع الصفقة التي لا يراها الناس. يعرف
لماذا قيلت الكلمة، ولمن مدّت اليد، وما الذي بيع في السر وإن بقيت الواجهة في العلن كما
هي.

كم يحتاج المؤمن أن يخاف من أول تنازل يطلب منه أن يدفع شيئاً من دينه ليبرح شيئاً من
دنياه. فالهاوية لا تأتي دائماً في صورة هاوية؛ قد تأتي أول مرة في صورة خطوة صغيرة
مقبولة.

حين تسقط الأفتعة عند الموت

ثم يقول سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْنَفَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

الدنيا تسمح للإنسان أن يؤجل انكشافه. يستطيع أن يصنع صورة، وأن يختبئ وراء عنوان، وأن يجعل نيته، وأن يستعين بكلمات كثيرة. لكن الموت منطقة تسقط عندها أدوات التجميل كلها.

وتكشف الآية أصل المأساة مرة أخرى: ﴿اتَّبَعُوا مَا أَصْنَفَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾. ليس السؤال إذن عن فعل منفرد فحسب، بل عن الاتجاه العميق للقلب: إلى أي شيء كان يميل حين يتعارض رضا الله مع رضا الهوى؟

الحياة سلسلة اختيارات صغيرة تصنع في النهاية اتجاهاً واحداً كبيراً. وكل اختيار يهمس بشيء عن المحبوب الحقيقي في القلب.

﴿أَنْ لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾... ما تخفيه الصدور لا يبقى خفياً إلى الأبد
يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾.
هناك أشياء يستطيع الإنسان أن يخفيها طويلاً عن الناس: حسد، حقد، كراهية، رغبة في
إسقاط آخرين، فرح خفي بفشلهم. لكن القرآن يسميها بما هي عليه: أضغان.
والمعنى المهيّب هنا أن ما يُدفن في القلب لا يكون قد مات لمجرد أنه لم يظهر. إنه يعيش،
ويتغذى، وقد ينتظر ظرفاً مناسباً ليخرج.
لهذا كان إصلاح القلب عملاً حقيقياً، لا ترفاً روحياً. فالقلب ليس مخزناً آمناً يمكنك أن
تلقّي فيه ما تشاء ثم تواصل الحياة. ما تتركه داخله يصنع نظرتك وكلامك وقراراتك، ولو
بعد حين.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾... الكلام يسرّب ما تخفيه القلوب
قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
أَعْمَالَكُمْ﴾.

ما أبدع التعبير: ﴿فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾.

قد يختار الإنسان كلماته بعناية، لكن شيئاً من قلبه يتسرّب بين الكلمات. نبرة، لمزة، طريقة
مدح، طريقة اعتراض، التواء صغير في العبارة. فاللغة ليست غطاءً كاملاً للباطن؛ كثيراً ما
تشق الروح ثقباً في الكلام وتطل منها.

وهذا يجعل المؤمن أكثر خوفاً من أمراض القلب؛ لأنك قد تنجح في إخفاء المرض فترة،
لكنه سيتربص بصمته في صوتك ونظراتك واختياراتك.

ثم يأتي الميزان الذي لا يخطئ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾. قد لا يعرف الناس ماذا قصدت،
ولكن الله يعرف.

وهذا كافٍ.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾... الامتحان يخرج المكنون إلى الواقع يقول سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾.

ليس المراد علماً حادثاً بعد جهل - تعالى الله عن ذلك - فالله محيط بكل شيء علماً، ولكن الابتلاء يظهر في عالم الواقع ما سبق به علمه سبحانه، وتقوم به المحجة، ويتميز الصادق بالفعل. ولهذا فإن الحياة لا تكتفي بأن تسألك: ماذا تؤمن؟ بل تضعك يوماً في ظرف يجبرك أن تجيب بفعلك.

تقول: أنا صابر. فيأتي ما يختبر الصبر. تقول: أنا مخلص. يأتي موقف يستطيع الرياء أن يشترك فيه. تقول: أحب الله. تأتي لحظة تتعارض فيها محبته مع شيء تحبه.

وهكذا تصنع المحن سيرة الإنسان الحقيقية.

قبل الامتحان نحن احتمالات.

وبعده تظهر الاختيارات.

مخالفة الرسول ليست تفصيلاً في الطريق

ثم يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا سَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ هُمْ يَنْصُرُونَ﴾. ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِيطُ أَعْمَالُهُمْ﴾.

تعود السورة إلى الحقيقة التي بدأت بها: الأعمال يمكن أن تتحول إلى هباء إذا قامت على مواجهة الحق بعد ظهوره.

﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾.

يا لها من ضربة لكل وهم يظن أن مقاومة الدين تستطيع أن تنتقص من ملك الله. الناس حين يعصون لا يخذشون سلطان الله، بل يجرحون أنفسهم. وحين يحاربون الحق لا ينقصون الحق، وإنما يخسرون موضعهم منه.

الله غني.

والدين لا يطلب منا نصرةً لأن الله يخشى عليه من السقوط؛ نحن الذين نحتاج أن يكون لنا سهم في الحق قبل أن تمر بنا الحياة ونجد أن القضية التي ظننا أننا نحاكمها كانت في الحقيقة هي التي تحاكمنا.

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾... أخطر الخسائر أن تهدم بيدك ما بنيت

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾.

يخيفك القرآن هنا لا من العجز عن العمل فقط، بل من شيء آخر: أن تعمل ثم تهدم. أن تتقدم سنوات، ثم تسمح لكبر أو رياء أو انحراف أن يأكل ما بنيت. أن يكون لك تاريخ جميل ثم تتعامل معه كأنه ضمان أبدي، فتسترخي حتى تنقلب الوجهة.

الإيمان ليس شهادة قديمة تحتفظ بها في درج. إنه علاقة حاضرة، تتجدد بالطاعة. ولهذا لا يعيش المؤمن متكئاً على ماضيه. لا يقول: فعلت يوماً، وضحيت يوماً، وبكيت يوماً. بل يسأل: أين قلبي اليوم؟

فالطريق إلى الله لا يُقطع بذكريات السير.

بعض النهايات لا يفتح بعدها باب المغفرة

ثم يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾.

القيد الحاسم: ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

ما دام الإنسان حياً، فباب الرجوع قائم لمن رجع صادقاً. لكن الموت يختم الصفحة على الحالة التي خرج بها المرء من الدنيا.

وهنا يعود معنى ﴿بَعَثَ﴾ من بعيد. إن خطورة التأجيل ليست فقط أنك تضيع يوماً؛ بل أنك لا تعرف أي يوم سيكون الأخير.

فالنجاة ليست في أن تعرف أنك ستتوب يوماً.

النجاة في أن تكون على طريق التوبة الآن.

﴿فَلَا تَهِنُوا... حين يحاول التعب أن يتنكر في هيئة حكمة
ثم يجيء النداء في آخر السورة: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ
يُتْرَكُ أَعْمَالُكُمْ﴾.

في سياق المواجهة التي تحدث عنها السورة، يأتي النهي عن الوهن الذي يدفع إلى طلب
السلم من موقع الانكسار حين تكون للمؤمنين القدرة والموقف.

لكن وراء السياق معنى نفسي واسع: إياك أن تسمي التعب حكمة دائماً.

أحياناً يتعب القلب فيبدأ بصناعة فلسفة كاملة للانسحاب. يقول: لا فائدة. الواقعية تقتضي
التراجع. لا شيء سيتغير. لكن السؤال القرآني ليس فقط: هل تعبت؟ بل: هل يحق لك
أن تحول التعب إلى تنازل عن الحق؟

ثم تأتي الجملة التي تعيد الدم إلى القلب: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾.

ليست معية تشبيه أو حلول - تعالى الله عن ذلك - بل معية النصرة والتأييد والعلم والرعاية
كما يليق بجلاله سبحانه.

﴿وَلَنْ يَتْرُكُ أَعْمَالَكُمْ﴾.

لن ينقصكم ثوابها، ولن يضيع تعبكم عنده.

كم يحتاج المتعب إلى هذه الآية.

قد لا يرى ثمرة ما صنع.

قد يمضي أعواماً ولا يرى النتيجة التي انتظرها.

لكن الله لا يضيع الأعمال.

إن أخلصت، فقد وصل العمل إلى موضع لا تضع فيه الأشياء.

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ... حِينَ تَسْقُطُ الْأَفْنَعُ عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي تَتَقَاتِلُ عَلَيْهِ
قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ
أَمْوَالَكُمْ﴾.

بعد كل ذلك الجد: إيمان، قتال، نفاق، تدبر، موت، جنة، نار... تضع السورة الدنيا في
حجمها الحقيقي: ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾.

ليس المعنى أن كل لحظة فيها باطلة، فالعمل الصالح فيها طريق الآخرة؛ ولكن الدنيا إذا
أخذت مستقلة عن الله والآخرة، تحولت إلى انشغال مؤقت يملأ الساعة ثم يترك اليد
فارغة.

كم من خصومة بدت في وقتها كأن الكون متوقف عليها، ثم مرت سنوات فصار أصحابها
يستغربون كيف استهلكتهم.

وكم من شيء بكيت لأنك لم تحصل عليه، ثم بعد أعوام حمدت الله أنه لم يأتك.

إن القرآن لا يطلب منك أن تهجر الدنيا، بل أن ترى حجمها الصحيح.

خذ منها ما يعينك على الطريق، لكن لا تحملها في قلبك بحجم الأبد.

الله لا يريد أموالنا... إنه يريد ألا تملكنا أموالنا
يقول سبحانه: ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَبُخْرَجَ أَصْغَانَكُمْ﴾.
المال لا يكشف حجم الرصيد فقط؛ يكشف أحياناً حجم التعلق.
وقد يظن الإنسان أنه زاهد في شيء لم يطلب منه أن يفارقه قط. فإذا جاء البذل، خرجت
علاقة القلب بالمال من عالم الادعاء إلى عالم الحقيقة.
والله سبحانه غني عن مال العباد. لكن البذل يحرر العبد من المال.
أنت لا تعطي لأن خزان الله يحتاج ما في جيبك، بل لأن قلبك يحتاج أن يتعلم أن ما في
يده ليس إلهاً صغيراً يخاف فقده.
ولهذا يكون الإنفاق تدريباً على التوحيد.
فاليد تخرج المال، لكن الذي يتحرر حقاً هو القلب.

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُفْقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾... من يبخل فإنما يبخل على نفسه
وتصل السورة إلى ختامها: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُفْقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ
يَبْخُلُ فَإِنَّمَا يَخْشَى لِنَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾.

هذه واحدة من أعظم التصحيحات في فهم العبادة.

حين تعطي لله، لا تغني خزائنه.

أنت تغني نفسك.

وحين تبخل، لا تحرم الله.

أنت تحرم نفسك.

﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾.

هذه هي الحقيقة التي تسقط حولها كل الأوهام: هو الغني، ونحن الفقراء. كل ما بين أيدينا
منه. القدرة على الطاعة منه. المال منه. العمر منه. الهداية منه. ثم يأذن لك أن تقدم شيئاً
مما أعطاك، ويكتب لك عليه أجراً.

أي كرم أوسع من هذا؟

يعطيك...

ثم يطلب منك بعض ما أعطاك...

ثم يثيبك إذا أعطيته!

فالمنة لله من أول الطريق إلى آخره.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾... الدين لن يتوقف عليك
ثم تأتي آخر كلمة في السورة، حادثة كأنها تريد أن تمنع المؤمن من الاغترار بمجرد انتسابه:
﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾.

يا صاحبي...

ما أُرهبَ هذه الخاتمة.

بعد أن حدثتك السورة عن نصره الله، قد يتسلل إلى النفس شعور خفي بأن الدين محتاج إليها.

فتأتي آخر آية لتكسر هذا الوهم كله:

إن توليتهم... استبدلكم.

الدعوة باقية.

والوحي محفوظ.

والحق لا يموت بخذلانك.

قد تخسر أنت شرف حمله، ثم يأتي الله بمن يحمله.

إن أشد العقوبات ليست دائماً أن تُهزم.

قد تكون أن يستغني الله عنك في موضع كان يمكن أن يشرفك به.

أن يفتح باب الخير، فتبتاطأ، فيدخل غيرك.

أن تُعرض عليك خدمة الحق، فتؤجل، فيهيئ الله لها قلباً أصدق.

أن تكون قريباً من موقع العطاء، ثم تسقط من يدك الفرصة لأنك ظننت أن الطريق متوقف عليك.

لا.

الله غني.

والحق يمضي.

والسؤال ليس: ماذا سيحدث للدين إن تركناه؟

السؤال الحقيقي:

ماذا سيحدث لنا نحن إن تركنا الدين؟

سورة محمد... من ضياع العمل إلى استبدال المتولين

هكذا نخرج من السورة فنكتشف أنها لم تكن سورة قتال فحسب، كما قد يظن من يقرأ بعض آياتها منفصلة عن بنائها الكامل.

إنها سورة الصدق.

تبدأ بأعمال ضائعة:

﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

ثم تعطيك سر النجاة:

﴿آمَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾.

ثم تدخل إلى الداخل:

﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

ثم تسألك عن الطريق:

أتبع الحق أم الهوى؟

ثم تأخذك إلى الميدان لتكشف لك أن الإيمان لا يُعرف كله في السكينة.

ثم تقول:

﴿إِنْ تَنَصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ﴾.

ثم تفتح لك باب الولاية:

﴿اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

ثم ترسم الجنة.

ثم تكشف المنافقين.

ثم تصل إلى القلب المغلق:

﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

ثم تمر بك على الصدق والطاعة والابتلاء والبذل.

ثم في آخر الطريق تضعك أمام الحقيقة الأخيرة:
﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾.

وكان السورة كلها تريد أن تنزع من قلب المؤمن وهمين كبيرين:
وهم أن الإيمان كلهات.
ووهم أن الله محتاج إلينا.
لا.

الإيمان موقف يظهر حين يكون للموقف ثمن.
والله غني عنا جميعاً.

نحن الذين نحتاج أن نكون معه.

نحن الذين نحتاج أن يثبت أقدامنا.

نحن الذين نحتاج أن يصلح بالننا.

نحن الذين نحتاج ألا توضع الأقفال على قلوبنا.

نحن الذين نحتاج ألا تُستبدل.

ولعل من أعمق ما يبقى في القلب بعد سورة محمد أن الإنسان قد يقضي عمره كله وهو
يسأل الله أن ينصره، بينما السورة تعيد السؤال إليه:

هل نصرت أنت الحق حين مرّ بك؟

وقد يقضي عمره يسأل عن الثبات، والسورة تقول له:

﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

وقد يشكو اضطراب قلبه، وهي تهمس منذ أول صفحاتها بسرّ عجيب:

﴿وَأَصْلَحَ بِهَمِّكُمْ﴾.

فالذي يربط قلبه بالحق لا يعده الله بطريقٍ لا يهتز... لكنه يعده بشيء أعظم: أن يثبت
قدمه حين يهتز الطريق.

أن يثبت قدمه حين يهتز الطريق.

وهذه هي هدية السورة الكبرى.

أن تعرف أن النصر قبل أن يكون مشهداً على الأرض، قد يكون حالة في القلب.

وأن الهزيمة قبل أن تكون سقوط مدينة، قد تكون سقوط الإنسان من داخله.

وأن أخطر ما يمكن أن تخسره ليس مائلاً ولا مكاناً ولا معركة...

بل أن ترى الحق، ثم لا تتبعه.

وأن تسمع القرآن، ثم يبقى القلب مقفلاً.

وأن تدعى إلى نصره الله، ثم يتجاوزك الركب.

فيا رب...

لا تجعلنا ممن يسمعون ولا يفقهون.

ولا ممن يعرفون ثم يتراجعون.

ولا ممن يخجلون فيدخلون عن أنفسهم.

واجعل لنا من وعدك نصيباً:

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾.

واجعلنا ممن إذا جاءهم الحق اتبعوه، وإذا دعاهم الوحي أجابوه، وإذا امتحنتهم في الطريق صدقوك.

حتى نصل، بعد تعب العمر كله، إلى ذلك الوعد الذي مر بنا في أول الرحلة:

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿١٠٦﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾.

فما أجمل أن ينتهي تعب الإنسان...

إلى مكان يعرفه قلبه قبل أن تراه عيناه.